أى قوة أعظم من القنبلة الذرية!

للكاتب الأمريكى هارى امرسون فوزدك

(صوت هادىء قوى يخرج واضحاً من بين ضجيج الآلات وعجيجها ليفهم عبيد الآلة أن فى الحياة ما هو خير وأقوى من الآلات ، وشعاع من نور يتخلل سحب الدخان الكثيفة الثائرة من الآلات ليهدي الناس الى الرشد ويضىء لهم آفاقا من الجمال. ذلك الصوت هو صوت الشرق ، صوت الروح ، يردد صداه ويبين قوته الكاتب الأمريكى «هارى إمرسون فوزدك» الذى يعرفه العالم أجمع والأستاذ والمؤلف الذى قدرته الجامعات فى أمريكا وأوربا ومنحته كثير منها درجات فخرية ، والذى ترجم كثير من كتبه الى جل لغات العالم . وهو كاتب نفسانى مبرز، طرق العلاج النفسانى واهتدى بكتاباته النفسية الملايين من قرائه . ولعل فيما كتبه عقب الحرب الأخيرة وننقله اليوم ، عبرة لهؤلاء الذين انسلخوا من شرقيتهم ففقدوا روحانيتهم، وراحوا يعبدون مادية الغرب ويدعون الى عبودية من نوع جديد .) المترجم

كتب هنرى آدمز صاحب كتاب « تربية هنرى آدمز » فى سنة ١٩٠٠ خطابا من باريس يقول فيه إنه كان يذهب عقب كل ظهر إلى « معرض العالم » حيث يصلى للدينامو، وأنه قد ترك كل شىء إلا عبادته. ولقد كان الدينامو أسمى شىء فى العالم الحديث، وكتب كذلك «لماذا لا يكون الدينامو جديرا بالتقديس »

وإن ذلك أصبح تقريباً دين الملايين الحقيق ، لأن الإنسان فى ثلاثة أجيال قد اخترع بأذهان نفاذة منهمكة وأنتج المعدات العلمية المدهشة فى عالمنا الحديث ، وقريباً فى المدرسة التى تعلمت فيها، جامعة كولجات ، حيث كانت تخصص دراسات لرجال الطيران كان شاب قد تأخر عشر دقائق عن ميعاد التسجيل ، فكان رده على تأنيب الضابط « إنى آسف يا سيدى أن أكون متأخراً ولكنى كنت بالأمس فى أفريقيا » .

إن اختراعات العلم الباهرة لتذهل ، والدينامو — كما فى حالة هارى آدمز — مضافاً إليه القنبلة الذرية وعماتها وبنات عماتها قد خلقت الآلهة الجديدة للعالم الغربى .

وليس هناك فى عصرنا من شىء بالغ الأهمية كتنبيه عقل الانسان والضمير إلى إفلاس هذه العقيدة الجديدة .

وفى سنة ١٩٢٤ كتب ونستون تشرشل متنبئاً بأن العنصر البشرى إذا لم يستفد من الفضيلة مقدراً إياها حق قدرها ولم يحظ بقيادة أرشد — فإنه بذلك قد وضع فى يديه للمرة الأولى الآلات التى بها يستطيع أن يستأصل شأفة نفسه .

وفى هذا العمل الانتحارى الآخذة فيه المدنية الآن ، ليست علة النكبة تدمير العلم المبتدع — وإن بدا هذا التنميق البلاغى مثيراً للدهش — ولكنه خسران روحى وخلقى مبين .

وهناك أشياء لا بد أن يرفع من قدرها إذا أرادت المدنية أن تبقى ؛ القيم الخلقية أعنى إحياء تقدير القوانين الخلقية السرمدية وإيجاد ثقافة روحية موحدة مؤسسة على فلسفة الحياة والإيمان المتصل بها ويدعم كل ذلك المبادىء الأخلاقية لأن ذلك سوف يضفى على الحياة معنى وغرضا .

وكان الجيل الذى درجت فيه — معتقداً فى الآلية والتقدم الحتمى — موسوماً بطابع التفاؤل المريض الذى لم يسبق له مثيل فى التاريخ ، فقد كنا نرى أنفسنا راقين فوق معراج سماوى أردنا أم لم نرد حتى « يصبح الانسان ، ليس ملكا فقط بل رئيس ملائكة » كما كتب صمويل بتلر .

ولكننا اليوم نواجه إحدى الأزمات الجدعصيبة فى التاريخ مع أن الانسان لا يبدى أية دلائل على أنه سوف يكون رئيس ملائكة ، ويبين كل ذلك هذه الحقيقة : إن حل مشكلتنا لا يكمن فى سيطرتنا على الناحية المادية كونه فى سيطرتنا على الناحية الروحية.

وحينئذ فلن نضع الروحية أولا ، زعم أنه من الواجب أن تكون أولا إذا أردنا أن نحيا ، بل علينا أن نعمل ما ندعوه « بالتربية على نطاق واسع » دون الإشارة إليها ؛ وأن ندفع بمثل هذه المبادىء الأخلاقية والاعتقادات الدينية كما ندفع شهوة فى حياتنا الخاصة مع أن القوانين الخلقية السرمدية والحقائق الكلية لم تنطبق على الحاجة الماسة للعالم أجمع .

إن عيوناً كثيرة ما زالت مركزة على سيطرة الانسان على المادة، وجميع الآلات النافعة التى سوف يكون لها أثر نتيجة لمواجهتنا

مشاكل ما بعد الحرب المرعبة ، مع أن ذلك لا يعفى ضرب أوربا لنيويورك بقنابل تسير كأنها البشر ، وما شابه ذلك من الروعات التى لا حد لها ، ما لم تسد الانسان المبادىء الاخلاقية والحقائق الدينية التى يخلص لها .

وينبغي أن تكون النازية معلمنا ومبصرنا فى هذه النقطة ، فلم يكن على الأرض من أمة أكثر كفاءة علمية من ألمانيا ، ولكن لتنظر إلى مآلها تحت قيادة هتلر الجنونية ، فإن النازيين قد أسلموا جميع المبادىء الأخلاقية وجعلوا « الجنس السيد » إلههم وأنكروا كل فلسفة ترفع من الكرامة الجوهرية للشخصية الانسانية ، واعتقدوا فيما يتعلق بالأخلاق المسيحية « أنها لا تصلح إلا للجبناء والضعفاء » .

وفى قصة الإنجيل القديمة عن الطوفان ، ذكر أول ما ذكر عن نوح ، أنه سكر بعد أن غاض الطوفان ، وما زالت الطبيعة الانسانية ذاتها باقية ، فإن نوحا ربما كان رائعاً حين الفيضان ؛ وحين اللحظة الحرجة كان يصنع كل شيء فى عراك مع الحياة والموت ؛ ولكن حينما انتهى التوتر استرخى وأنزل كل شيء وجثا على ركبتيه ثم سكر .

ولقد فعلنا نفس الأمر عقب الحرب الأخيرة — فهناك طرق كثيرة للسكر علاوة على استعمال الكحول — فإن الملايين تفعل ذلك ثانية الآن ، ولقد أصبح الإغراء بعد الكفاح بالاتضاع خلقيا عند الكثيرين على وشك ألا يقاوم : وإن الحقيقة عقب كل حرب لتحقق قول الفرد أدلر العالم النفسانى : « أن نحارب من أجل مبادئنا أسهل من أن نعيش لرفعتها »

ولقد قال النبي العبرى ميخاء كما فى ترجمة الدكتور موفات له ، إلى قومه « عليكم ألا تعبدوا بعد الآن الأشياء التى تصنعونها » ، وإننا ليعوزنا ذلك أشد العوز بدرجة لم يحلم بها ميخا . ولقد نجمت كارثتنا عن خسران خلقى وروحى ؛ ولن يأتى خلاصنا إلا عن إعادة تدعيم المبادىء الخلقية والروحية والمعتقدات .

وإن علينا أن نأخذ تلكم الحقيقة باهتمام مع مراعاة تربيتنا ودينا ، ولقد انحدرت من بين جيلين من رجال التعليم وقضيت جل حياتى على صلة بالمدارس والجامعات . وإنى لأعطف من كل قلبى على المشاكل التى يواجهها المدرسون وأوافق على أنه ليس من العدل لومهم ، لأن الناس ينقصهم فلسفة روحية موحدة ووجهة نظر واضحة تجاه المبادىء الأخلاقية الحتمية . وان مدارسنا تتأمل بكل بساطة الآراء السائدة عن ثقافتنا ككل واحد ، وقد أصبحت أكثر فنية ومهنية فتخصصوا فى كل شيء تحتاجه الاختراعات العلمية .

إن شبابنا يستطيعون أن يلموا سريعاً بميراث الحقائق الأخلاقية العظيم وعن المعتقدات الفلسفية والدينية التى تجعل العمل ممكنا أيا كان الصالح فى ثقافتنا الغربية ، وكما أجمل أحد خريجي الجامعة « النتيجة بقوله لقد أعطونا كلاما ، ولكن دون محور »

وإذا أردنا أن نحفظ الديمقراطية فعلينا أن لا نستمر فى تعليم الناس كل شيء عدا المعتقدات العظيمة والمبادىء الأخلاقية التى جعلت الديمقراطية ممكنة الوجود فى المكان الأول . ولقد نبعت الديمقراطية من نهرين التقيا فى ثقافتنا الغربية — اليهودية المسيحية وميراث اليونان — فجعلا الديمقراطية ممكنة لأنهما كشفا عن سلسلة عظمى من أصل الخلق الحيد وعن قدسية الشخصية الانسانية ، ومكانة الحرية الروحية وأسس القانون الأخلاق عن طبيعة الله . وهذا هو المستوى الذهبي الذى بدونه لن تكون هناك ديمقراطية البتة ، ونحن آخذون فى تربيتنا فى الانحراف عن المستوى الذهبي كأن بيننا وبينه ثأرا .

ولهذا السبب نواجه مستقبلا قاتما لعالم اقتصر على فن الصناعات ولكنه صفر من الإيمان والثقافة الروحية الموحدة ، ومن وحدة الروح المؤسسة على معرفة وصدق فى الفهم العام للحياة ومبادىء أخلاقية فى السلوك فيها .

والحقيقة الواقعية أننا قد ملكنا فى أيدينا علما حديثا ؛ وأنه هنا ليدعم وينمى ويضع تحت سيطرتنا أكبر قدر ممكن من القوة ، وسيطرته على القوى الذرية — والكونية تزيد يوميا من قدرتنا على رفع أو إبادة العنصر البشرى ، وتنتشر بسرعة مخيفة فى جميع الأجناس والأمم ، وما لم تستطع أن تساير التربية الخلقية الايجابية والأخلاق الدينية السامية كل هذه القوى الجديدة وتولد وحدة روحية وإخلاصا عاما نحو المقاصد الخلقية التى تجعل العدل والصلاحية أولا فإن علمنا سوف يستعمل لهلاكنا .